دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

القبلية في المدينة
مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية
حالة مدينة بني ملال

د. المصطفى أيت يدير
مفتش تربوي للتعليم الثانوي
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

على الرغم من تجذر فكرة المدينة في المغرب منذ الحقبة القديمة، سواء في الكتابة التاريخية أو ما يقوم مقامها، أو في طوبونيمات محلية ووافدة، بعضها مندرس، وبعضها لا يزال قائمًا، فإن تحقيق فكرة المدينة والتمدن، لم تتم إلا بشكل ظاهر، لا تتعدى مستوى التعبير المؤسساتي والاداري، وما تفرضه الدوافع الاقتصادية والسياسية لاستعمال المجال، ولم ينفذ إلى مستوى العقليات والذهنيات، في سلوكات الناس وخطاباتهم، وفي أنماطهم الثقافية والتفكيرية. يعتبر الامتداد القبلي والعقلية القبلية داخل المدينة أحد أهم العوامل الرئيسة المانعة لتحقق التحول المنشود، إذ إن المدينة المغربية عامة، ومدينة بني ملال التي نناقشها في هذه الدراسة، لم تتطور من ذاتها، ولكنها نشأت من حاجة سياسية وعسكرية، ابتدأت بالحصن والقصبة، لتشكل مع توالي العقود والقرون ملجأ القادمين إليها من قبائل أمازيغية وعربية، عمرت المجال وحملت معها ثقافة البادية والبدو، التي وجدت داخل الإطار الجديد مسالك للبقاء والترسيخ، لم تزد مع الوقت إلا تحجرًا. إن مسار تشكل هذه الحاضرة كما خطته سجلات التاريخ، تبرز أن السلطة السياسية، التي كانت لها رهانات سياسية واستراتيجية ترتبط بسياق وقتها، منذ القرن (٦ هـ/١٢م)، عملت على استيطان عناصر بشرية ظاعنة متنقلة، اعتادت ثقافة الترحال والخيام، فلما تغيرت ظروف الوقت، وتغير نمط الانتاج والمعاش، وكان لابد من الاستقرار، وجدت تلك القبائل نفسها أمام صعوبات القطع مع العهد الماضي، ولا ينفك الفرد يشهر هويته القبلية، معدًا أنسابه وأجداده كلما دخل في حوار أو صراع مع طرف آخر. نعتقد أن هذه المعضلة، حدّت من فعالية الفكر المديني، وهويته الموجبة للانصهار وللعقلنة، بما هي قيم جديدة، يعضدها الانتاج المادي والفكري الحديث المصاحب لنظام اجتماعي معبر عن عمق التحول.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ فبراير ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ فبراير ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التمدن؛ القبيلة؛ السلطة؛ المخزن؛ بني ملال

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2021.218768

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المصطفى أيت يدير. "القبلية في المدينة، مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية: حالة مدينة بني ملال".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٣١ – ٤٢.

Corresponding author: aitidirmustafa@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

بـني مـلال مدينـة بالنعـت، وعنـد المـؤرخين بالروايـة، وأمـا بالدرايـة ومـاجريات التـاريخ فهـي قبيلـة، ليسـت قبيلـة بالنسـب، فذلك من قبيل الوهم، وإنما هي كذلك بالتدبير وبعقلية العمل والسلوك[1]. **ما هو الباعث على هذا القول؟**

ثمة مؤشرات متفاوتة القيمة لقياس صوابية هذا الطرح من عدمها، أمكن لنا أن ننتقي منها اثنين، ونجعلهما في ذات الوقت أدوات بناء الموضوع. أولها ملاحظات معاشة تخلق استفزازًا ذهنيًا مؤداه خطاب وممارسة متأصلان في البداوة، وجدت منافذ يسيرة لتنغرس في مدينة ذات جذور قرنية. ثانيها امتداد العصبية (القبلية) – بالمعنى الخلدوني- بين الأفراد والزمر وفي كل أشكال التدبير والتفكير. مسألة العصبية القبلية هذه، والتي تشتغل حولها جملة عناصر سنأتي على ذكرها تباعًا، هي الـتي سـنجعلها مفهومًـا رئيسًـا للبنـاء، بـه سـنراقب انحبـاس الانعتـاق والانتقـال مـن وضـع إلى آخـر. فالقاعـدة "تاريخيًـا وسوسيولوجيًا" أن الغاية التي تجري إليها الحضارة هي الانتقال من طور الخشونة البدوية إلى رقة ودَعة المدينة. قد يتساءل متسـائل، إذا اسـتقرت الدولـة وتمهـدت فإنهـا تسـتغني عـن العصبية، عصبية القبيل، فهل لعصبية ابن خلدون من بقية بعد عصـر ابـن خلـدون؟ تسـاؤل وجيـه لـولا أن الواقـع معـاكس للمـأمول، امتـد إلى رفـض فكـرة التحقيـب المقترحـة لتـاريخ المغرب جملة وتفصيلا. "إن الفكر الخلدوني فكر فلسفي، والفكر الفلسفي الأصيل يتجاوز عصره بمقدار ما هو نتاج هذا العصر نفسه،... يعكس (التراث الخلدوني) بقوة وعمق خبايا وتفاصيل أهم وأخطر حقبة من التاريخ العربي الاسلامي... ويعكس أيضًا جانبًا مهمًا من جوانب واقعنا الراهن، هذا الواقع الذي تتواجد فيه جنبا إلى جنب بنيات القرون الوسطى، والبنيات الجديدة التي خلقها عـالم اليـوم"[2]، الحـق أن هـذا الكـلام دال ومعبـر، بـل هـو، وصـميمًا، في عمـق الـدافع إلى أشـكلة الفكـرة المطروحـة والاشتغال عليها وبها في تاريخ بني ملال كمجال طرفي.

لنضف ملاحظة تأسيسية أخيرة تتصل بالجانب المنهجي، لكن في علاقة بمعرفية القضية المطروحة للنقاش، فبني ملال، الحاضرة التي تجاوز عدد سكانها اليوم مائتي ألف نسمة، ذات تـاريخ عميـق لكنـه غمـيس أيضًـا، الإشـارة هاهنـا إلى الاسطوغرافيا المحلية، وما تطرحه من مشاكل جمة أمام كل راغب باحث فيما يريد أن يعرض له، من نافل القول كذلك أن المظان والوثائق المنتجة حول بني ملال لا تسعفنا كثيرًا في الجواب عن الاشكالية المطروحة. قبل بسطه هذه الاشكالية، نؤكد مرة أخرى، أن الأمر يتعلق ببنى وهياكل المدينة وتحديدًا "التمدن" ولا يتعلق بعرض تاريخ على شكل سجل زمني للأخبار والأحداث، ومعلوم أن التطور الفعلي للمعرفة التاريخية حدث من هذا الباب، وهو الوحيد الذي سيمكن من مغادرة القلعة العتيقة للتاريخ بتعبير «ميشيل فوكو» (Foucault .M)، على أساس هذه الملاحظة ليس هاجسنا موجزًا مونوغرافيًا يبحث في مسار القبيلة والمدينة من حيث أهم الأحداث التي ميزته وعلاقتهما بغيرهما من القبائل والمدن وكذا العلاقة مع السلطة السياسية الحاكمة.

تأسيسًا على هذه المنطلقات سنقيد مناقشتنا في هذه الدراسة بالسؤال الإشكالي الآتي:

بـني مـلال مـن القبيلـة إلى المدينـة. مـاهي تجليـات استمرار البداوة والقبلية داخل مدينة بني ملال؟ وما هي ممكنات تحليل وتفسير الانتقال المتعثر؟ سنشتغل على هذا السؤال من خلال المحاور الثلاثة الآتية:

أولاً: تمدن الأطراف

(انشغالات في المنهج والموضوع)

يحمل البحث في تاريخ بني ملال قلقا ناتجا عن ملاحظات آنية، لكنها بجذور، ولأن التاريخ نظر وتحقيق، فقد كان لابد من بلـورة إشـكالية يسـاهم بهـا في محاولـة لاسـتكناه معيقـات التحول، بقطع النظر عن النتائج التي كان من المتوقع أن نخرج بها هذا من هذه المحاولة. تحول ملازم لكل مجتمع محتم عليه الانتقـال مـن «التضـامن الآلي» إلى «التضـامن العضـوي»، أو بعبـارة أخـرى مـن الجماعـة «communauté» إلى المجتمـع «Société». نعتقـد أن مكمـن التفـاوت حاصـل هنـا، حيـث لـم تتبلـور على صـعيد العلـوم الإنسـانية، أبحـاث مواكبـة لصـيرورات المجتمع أيًا كان حجمه ومقياسه. من هذا المنظور فهمنا أن الإنسان في بني ملال خضع ولا يزال لمؤسسة اجتماعية هي القبيلـة يعتقـد ذهنيـا أنهـا قواعـد وقـوانين لا يمكـن تغييرهـا، وبالتالي ينبغي الخضوع لها كما هي، نزعم أن هذا هو «الرحم التاريخي» الذي نشأ فيه العطب.

مـدار اشـتغال هـذه الدراسـة أربعـة مفـاهيم رئيسـة، البنيـة والتحـول والمدينـة والقبيلـة. أمـا البنيـة[3] فهـي تنظيـم واتسـاق للعلاقات الأكثر ثباتًا بين الواقع وظواهره الاجتماعية، كما أنها واقـع يـؤثر في الـزمن بصـعوبة ويطيـل في عمـره كثـيرًا، فتصـبح أساسًـا ثابتًـا لأجيـال بـلا حصـر، تملأ التـاريخ وتعطـل مسـيرته. والاستعانة بالبنيات لفهم واقع المجتمع الحضري الملالي فرض

الانتقال من الاهتمام بما هو استثنائي إلى ما هو منتظم، ومن ما هو خارق للعادة إلى ما هو معتاد. هذا الاختيار ينعكس بصورة مباشرة على الخيار التحقيبي لأي محاولة بحثية في هذا الموضوع، إذ أن البنية تفرض تتبع الظاهرة الأكثر ثباتا والتي تتماشى مع الأمد الطويل. وأما التحول فهو أداة البحث وموضوعه في نفس الوقت وهو الكاشف عن حدود حركة التطور ونقط الانعراج، وبخصوص القبيلة[٤] فسنعتبرها وحدة لا تتحدد فقط بروابط الدم والقرابة بل بأشكال رمزية من التحالفات والولاءات والانتماءات، بالنظر إلى بنية المجتمع فإنها اعتبرت ضرورية في مسار تطوره، صارت في كثير من المراحل نحو التفكك لكنها لا تلبث أن تُحيى وتتجدد، إما من ذاتها وغالبًا من خارجها، مادامت تشكل الإطار الأنسب للضبط والتحكم. وأخيرًا المدينة باعتبارها كائنًا عضويًا له وظائف وحاضن لممارسات الأفراد والجماعات، كما أنها لا تتحدد فقط بمعيار كمي بل بما تنتج وتستهلك اقتصاديًا واجتماعيا بالمعنى "الفيبري" الذي حفر في أصول المدينة وتراكمات معانيها قبل أن تستقر على حالة وظيفية معينة. والمدينة ليست إلا الإطار المؤسس للتمدن، إذ يكون الهدف حينها هو تحقيق ما في البشر من قوة كامنة على تنمية الفكر، بهذا الصدد يلاحظ أنه بغياب الشرط الأول (المدينة) يتعذر كليا الحديث عن الثاني (التمدن).

إن بني ملال عُدَّت قبيلة ليس في ربائد التاريخ ولكن في التنظيم، وهذا التصنيف لم يكن إلا تساوقًا مع واقع الكتابة التاريخية واتجاهاتها في لحظات معينة من البحث في تاريخ المغرب عامة، فهو قول تقليد وبالتالي مبتذل، اندرج في إطار إصدار مونوغرافيات وصفية دفعت بوثائق وأغفلت السؤال التاريخي، فسقطت في إعادة إنتاج فكرة أن المجتمع المغربي مجتمع قبائل من غير وعي[٥]، سبب ذلك في نظرنا أن الرهان كان هو إثبات تمثيلية السلطة السياسية للمخزن في المجال ولو كان قاصيًا، في محاولة لتمطيط المناطق التي كانت تصلها يد السلطان، فلا اعتبار بذلك للمسالك التي تؤدي لهذا الإثبات. والحال أن القبيلة تكرست داخل المجتمع ولو كان حضريًا، وهي أول أشراط العصبية، وهذه إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه وبها تتحقق النعرة والتناصر والتعاضد، ولزيادة هذا التماسك فإن الأمر يصل إلى "ثمرة النسب" ما دام أن هذا الأخير أمر وهمي لا حقيقة له، كون أن الروح الجمعية السائدة في العصبة تحقق للفرد غايات مادية وأخرى معنوية تصب كلها في "المصلحة المشتركة" ولهذا الاعتبار أساسًا يشهر كل فرد هويته القبلية وبها يقدم نفسه حين مخاطبته لغيره.

إن هذا الإطار القبلي الذي اعتبرت البادية المجال الأنسب لاحتضانه وتدعيمه وجد السبل الميسرة ليتمدد داخل المدينة، مادامت هذه الأخيرة لم تنشأ في سياقها الخاص بها، وفي كلتا الحالتين، أي المدينة والبادية، لم تكن القبيلة إلا الوحدة التنظيمية العاكسة لصورة الأنماط الثقافية والذهنية والبنيات الاقتصادية والاجتماعية السائدة ببني ملال، فهو مجتمع لم يؤسس لنفسه بنى مسايرة للمدينة، والتطور الذي حصل داخله يفتقد وسائل التجاوز للعهد الزراعي الرعوي والانتمائي كذلك، هذا الشكل من التنظيم وجدت فيه الدولة المخزنية ولمدة طويلة حلاً لقصور سلطتها ويدها على التراب والإنسان، فعمدت على الإبقاء عليه كأساس للجبي والتنظيم والتسخير. في الحقيقة لم يكن المخزن يعتبر القبيلة إلا مقاولة عقارية[٦] وبشرية وجدت لتعطي لا لتأخذ، كلما تماسكت استفاد ما لم تتجاوز قوتها قوته، لكل هذا وغيره فإن القبيلة وحدة اصطناعية مدعومة بهواجس نفسية وذهنية لم تجد بعد الظروف المواتية لتفكيكها وإعدامها بصورة نهائية.

قبل استيضاح أمر العصبية وعلاقتها بانحباس التمدن من خلال نموذج بني ملال، من المفيد أن نتوقف وبشكل موجز عند السجل الاسطوغرافي للمدينة من أوائل عهودها إلى المرحلة الراهنة التي غدت فيها تعرف بالوصف المديني لدى كل من يقصدها أو يعيش فيها. لا تسعفنا الأسفار التي تخلفت من الزمن الماضي للقطع بالقول أن حاضرة بني ملال نشأت على أنقاض مدن وقصبات اندرس بعض أثارها ولا يزال بعضها الآخر باد للشاهد، فقد ذكرت مصادر العصر الوسيط والمصادر المتأخرة قاعدة داي ونعتتها بالمدينة[٧]، وأشارت إلى وفود بنو جابر من بني جشم الهلاليين إلى هذا المجال إبان العصر الموحدي الأوسط[٨]، إن المصادر والوثائق المتوفرة، تبين أن المجال التادلي، في بعض أجزائه، وبفعل ظروف الوقت، سار نحو التحضر أو «التمدن»، أو هكذا يرد على الأقل في تلك الربائد نفسها، إذا سلمنا بكون مؤلفيها سلطة ليس أمامنا إمكان تجاوزها، يرجع ذلك التمدن إلى الاستقرار السكاني والقطع مع ظاهرة الترحال والتنقل، اعتبارًا لأن الاستقرار هو الخطوة الأولى في اتجاه التمدن، فعندما تولى الرحالة الحسن الوزان الحكم باسم حكام الوقت في هذا المجال أثار انتباهه ذلك التمدن، فشرع يصف تلك الحواضر بالغنى والترف وبتفيء اجتماعي بارز، فذكر أفزا وتفزة وغيرهما[٩].

غير أن محاولة الاستقرار تلك أجهضت في مهدها، لأنها، وببساطة لم تكن محاولة من إبداع المجتمع، بل هي من وضع السلطة السياسية، التي لم تكن تتمتع بالاستقرار على امتداد الزمان والمجال، وإذ باءت تلك المحاولة بالفشل، فإن المجال التادلي عاد من جديد إلى الظعن والترحال. ولم تتمكن الحواضر التي استمرت بعد ذلك من أن تتجاوز أسوارها القائمة، بل إن ما كان موجودا منها اندرس. ولم تعد المصادر تذكرها إلا أطلالا، فارتد المجال من جديد إلى مجال القبيلة، وكأننا أمام تاريخ دوراني، ينطبق فيه على القبيلة ما ينطبق على الدولة، لما كان مصيرها يرتبط بالعصبية.

حملت بني ملال منذ بداياتها الأولى هوية مدينة تحيا فيها القبيلة باستمرار، فالقبيلة تستمد اسمها من القبيلة العربية المحيطة بها. إن النصوص المتاحة أمامنا تكشف عن هذا العطب، ونستدل عليه بنصين اثنين يحيل الأول إلى نهاية القرن السابع عشر والثاني إلى القرن التاسع عشر. كتب المؤرخ الزياني بصدد قصبة بلكوش منشأ حاضرة بني ملال يقول "رجع من السوس (السلطان اسماعيل) ودخل مكناسة فاستراح بها وتهيأ لحركة فازاز وخرج من مكناسة وطلع للجبل من الناحية الغربية، وأمر بتجديد قصبة دخيسان كان بناها يوسف بن تاشفين، وأمر ببناء قصبة ابن الكوش، وجعل بقصبة دخيسان خمسة عشر مائة فارس وأنزل بزاوية محمد الحاج كذلك وبقصبة تادلة ألف فارس وبقصبة بلكوش خمسمائة فارس"[10]، كان ذلك في حدود سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م. بعد قرابة قرنين من الزمن كتب الرحالة شارل دوفوكو واصفا بني ملال، فيقول "قصبة بني ملال، مدينة صغيرة يبلغ سكانها حوالي ٣٠٠٠ نسمة من بينهم ٣٠٠ من اليهود، بنيت عند قدم الجبل على مرتفع من الأرض يصلها بالسهل المجاور ... البناء في قصبة بني ملال من الحجر المدكوك ومنازلها لا تتوفر على أكثر من طابق واحد، لا توجد فيها أية صومعة ... كما أنه لا توجد بها إلا قصبة قديمة ذات أسوار عريضة ومرتفعة لم يبق منها إلا الأطلال.."[11]

هذا الأمد الطويل الذي تظهر فيه بنيات المدينة راكدة بطيئة مستعصية على التغيير أنهكها الزمن، أسهمت فيها عوامل متباينة بعضها سياسي واقتصادي وبعضها ثقافي ذهني لحمت العصبية القبلية كل عناصرها وتأبى أن تذوب على الرغم من انسحاقها الزمني، وحتى حين كان من المفترض أن يحدث ذلك، أي في عهد الحماية الفرنسية بما هي نشر للتمدن والتحضر، حصل العكس، أبقت فرنسا على البنيات القبلية التقليدية، بل أحيتها عمدا، لما ظهر لها أن تدبيرها بشخصنة الزعيم وتشكيل الأتباع يوفر لها الامكانات الضرورية لتصريف سياستها الاستغلالية، وبالمثل، سيستمر نفس الوضع قائما عقب العهد الاستعماري، إذ لم تبذل الدولة أي جهد في اتجاه التخلص من البنى التقليدية الحابسة للتقدم، بدورها قوّت شبكة الزعماء والأشياخ والأعيان، والذين تكفلوا جميعا بكبح كل تحول وانعتاق.

ننهي هذا المحور، وقد أوجزنا الكلام فيه كثيرا عن قضيتنا المعرفية منظورا إليها من زاوية التفكير في تعثر الفعل المديني بما يعنيه من حتميات الانتقال من طور البداوة إلى مجتمع المدينة إنتاجا وسلوكا وخطابا، فعل طالما أعاقه العض على القبلية داخل المدينة بالنواجد، يرتد إليها الفرد والجماعة في كل آن وحين، مسنودين بإحياء مقصود مؤسساتيًا وعاطفيًا.

ثانيًا: بنيات عطب التمدن اقتصاديًا واجتماعيًا وذهنيًا

بني ملال كما أومأنا أعلاه مدينة لامتمدنة، أسهمت قرارات متباينة المنشأ والامتداد في هذا الوضع، منها ما يضرب بجذوره في الزمن البعيد، ومنها ما هو مستحدث وفق سياقات طارئة، فالنزوع نحو التشبث بالقبيلة والجماعة لازم نفسانيات الملاليين أيا كانت أصولهم، غير أن هذا الأمر أوجدت له ظروف قوّت من امكانيات استمراره سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فعلى الرغم من صدور قرارات إدارية ظاهريا عملت على إبطال مفعول هذا التوجه[12]، فإن ذلك لم يُجد في شيء، واهِم من يعتقد أن الدولة أفنت القبيلة والقبلية، بل طالما انتفعت من وجودها ماديًا ورمزيًا. نولي الاهتمام الآن شطر الحديث عن عوامل حالت دون الانتقال المرغوب المتعثر، ونقف عند ثلاثة منها، وإلا فثمة من أخرى مسْهمة في تفسير المشار إليه:

٢/١-الاندفاع القبلي (المجالي والإسهام في التعثر)

مثّل مجيء عرب بني هلال دورًا مهمًا في هذا التعثر بل هو الذي دشنه، فقد خربوا السقف وانتهبوا الأموال ولم يعرفوا للعمل قيمة وقسطًا من الأجر، فأسرع الخراب إلى وطن تغلبوا عليه، قبائل سببت نكوصا وانتكاسة للمدينة والتمدن، ببساطة لأنهم جيل طبيعي في العمران وهي أولى مراحل التدرج في سلم التطور نحو المدينة[13]، غير أن الملاحظ المثير هو أن هذه القبائل تجر معها موروثها جرا وتأبى تماما فك الارتباط به حتى حين اتخذت المدينة مستقرا لها وسكنا، فقد بقيت القبيلة متجلية في عدة مظاهر منها الخطاب والسلوك والعلاقات وشؤون التدبير والتسيير وفي الحياة اليومية. وحتى لا يُظن أننا ناطقين بلسان وطن غزاه هؤلاء وأثخنوا فيه مدى أحقاب،

فإننا نوازي في ذلك التعثر بين عاملي المحلي والوافد، ونشير إلى أن قبائل المنطقة غلب عليها هي الأخرى الظعن والترحل لم تـزده الهجـرات الأعرابيـة والظـروف السياسـية والثقافيـة إلا تحجيرا. هذا الاندفاع حمل معه، وبقوة، مؤشرات الابقاء على الاستمرار، داخل بني ملال وإلى اليوم، يقدم الأفراد والجماعات أنفسهم على أساس الأنساب، فكل من يقطنها يصل نفسه بقبيلتـه هـذا مـن «أولاد» وذاك مـن «أيـت»، ذهنيـة موروثـة عجزت بها المدينة عن تحقيق اندماج وانصهار لساكنتها وهو أول أشراط تحقق نعت "المدينة".

لم تكن أزمة مدينة بني ملال وانتكاساتها إلا صورة لسمة الاختلال بين الدولة والمجتمع عامة، إذ لم تكن لها الآليات التي تمكنها من استنبات فئات اجتماعية بديلة ميالة إلى الاستقرار متعاطيـة لكسـب المعـاش منـه، ولـم تسـتطع التغلـب عـلى هشاشة النسيج الحضري والحد من طغيان البداوة حيث تطلب منهـا(أي الدولـة المخزنيـة) القطـع مـع سياسـة رعايـة الرعيـة والبحـث عـن القـرين في القـوة والنفـوذ والشـريك في المصـالح والمنافع، فكرة حملتها أساسًا مسألة الحْرَكات وزمن المْحلات في ثناياها زيادة على آليات ممارسة السلطة بالمدينة وقضايا الإنعام على البعض والمنع عن الآخر.

٢/٢-نمط الإنتاج (الگيش والترحال)

بـني مـلال تطـورت في مسارها التـاريخي عـبر مجموعـة مـن المراحـل مـع أن الغالـب عـلى بنياتهـا الاجتماعيـة والانتاجيـة والذهنيـة هـو الثبـات والركـود، فكـل نمـط مـن أنمـاط الانتـاج المعروفـة في الدراسـات الاجتماعيـة[١٤]، تتجسـد صـورته في هـذا المجتمع لكنها صورة لا تكتمل، مما يسقط تصنيفه ضمن هذا الـنمط أو ذاك، وحـتى لـو وصـفنا نمـط الإنتـاج في بـني مـلال ب"المركـب" فإنـه لا يزيـد الأمـر إلا غموضـا، وقبـل أن "نغـامر" بتسمية معينة، وجب تبرير التداخل والتمازج بين هذه الأنماط، فصـورة نمـط الانتـاج الآسـيوي لا تتطـابق كليـة مـع خصـائص مجتمـع بـني مـلال حيـث تغيـب أشـغال الـري الكـبرى وتسـود الملكية الخاصة للأرض إلى جانب الملكية الجماعية طبعا، وأما نمـط الانتـاج الخـراجي، فـإن انتظـام الفلاحـين في إطـار وحـدات للإنتاج أمر مستجد، وبالنسبة لنمط الانتاج القبلي، ظاهريا يبدو أن المدينة تشكلت على أنقاض القبيلة لكن لم تحصل القطيعة التامة بين مرحلتي التطور، إذ ورثت المدينة كثيرا من سمات القبيلـة عـلى مسـتوى القـيم والأخـلاق والأنمـاط الثقافيـة والمفـاهيم والخطـاب المتـداول والسـلوكات العامـة والفرديـة، وإذن فمجتمـع بـني مـلال تنطبـق عليـه صـورة هـذا الـنمط لكـن ليس بالانفراد. هل لم يبق إلا القول بأن نمط الانتاج ببني ملال هو نمط إنتاج إقطاعي؟

الجواب عن هذا السؤال يكون بالمماثلة بين الخصائص التي ذكرناهـا أعـلاه مـع سـمات مجتمـع بـني مـلال. بإيجـاز شـديد فمجتمع بني ملال اتسم من هذه الناحية بـ:

- بـروز زعامـات محليـة متسـلطة، قـواد ومـن بعدهم باشـوات، استفادوا من الصراعات حول الموارد ومن الخروج عن طاعة السلطة المركزية.
- سيادة الفوضى وانعدام الأمن وانتشار الاقتتال والعنف.
- سيادة الاقطاع سواء كانت إقطاع منفعة دائمة أو مؤقتة أو هما معا، وهذا الاقطاع هو الذي شكل أساس الامتياز والتمايز.
- قيام التراتب الاجتماعي على أساس امتلاك الثروة والنفوذ، مأتاهمـا الأرض والمنصـب الإداري ثـم روابـط الزبونيـة وعلاقات المصلحة والمنفعة.

كل هذه الخصائص وغيرها كثير، وكما هو الشأن للأنماط السابقة، هي خصائص غير مكتملة، فمع وجود زعامات محلية تماثـل سـلطتها مـا كـان للأسـياد فإنهـا زعامـات غالبـا مـا يـتم تزكيتها من المركز الذي كان ينزل بثقله على القبيلة ويستنزفها إما بالجبايات وإما بالتسخير، ثم إن هذه الزعامات لم يكن لها ما يكفي من السلاح فكانت تستنجد بالمركز ولا تظهر الفيودالية الحربيـة إلا في الحركـات وفي زمـن المحـلات، زد عـلى كـل هـذا الاقطاع بمثل ما كان يعرف به لم يكن مؤطرًا قانونا، فلا عقود ولا فصول كانت تفرض أو تتبع وهذا هو الوضع الذي ساد أوربا الوسيطية. والأساس من كل هذا هو أن السلطان انطلاقًا من مسوغات اعتبرها «شرعية» مكَّن لنفسه دون غيره ما به يمنح أو ينزع الأرض، وأهم مظهر لذلك في قبيلة بني ملال هو أن السلطان جعلها قبيلة «گياشة»، فكانت ربعًا واحدًا من قيادة منفصلة تسمى أيت الربع وكانت "جيشا من جيوش مولانا المؤيد بالله"[١٥]. وهذه الوضعية كان لها تأثير بالغ على البنيـات الاجتماعيـة والانتاجيـة والثقافيـة، إذ يظهـر أن الأرض وضعت بأيدي أناس لا يعرفون كيف يستغلونها، فجعلوها ما ليس لها، حيث منحت لقبائل تطبعت على الترحال والبداوة وليس عـلى الاسـتقرار، ثـم إن قضـية «الأرض مقابـل الخدمـة العسكرية»، لم تكن تحفز على الانتاج مادام أن التمليك مؤقت وحتى الانتاج معرض للمصادرة. ماهي إذن الجذور التاريخية لأرض «الگيش» (Guich) ولقبيلة الكيش في بني ملال؟

بداية تشكل الگيش تعود إلى عهد السلطان اسماعيل (١٦٧٢- ١٧٢٧) حين أسس قصبة تادلة وأنزل بها جيشا اتخذها مقرا له، ف "بعد تمرد قبائل شمال تادلا، بني خيران و اسماعلة و أيت يمور سنة ١٧٦٥ قام السلطان محمد بن عبد الله بنقلها ووطن محلها كطاية وهم بربر[١٦] الجنوب وسمكت بربر أصلهم من أيت حديدو وأيت سخمان ثم بني ملال الذين أضيفت إلى حاميتهم كل من شراكة والبواخر ثم بني معدان أصلهم من العرب كبني ملال والذين جلبهم هؤلاء الأخيرون فاستقروا في الضفة اليمنى لنهر أم الربيع حيث سيؤازرونهم في صراعهم ضد القبائل البربرية. هكذا تكونت قبيلة جديدة من أربعة أرباع هي كطاية وسمكت وبني ملال وبني معدان تحت اسم أيت الربع فشكلوا جيشا يساهم ب ٥٠٠ فارس."[١٧]

إن تصنيف بني ملال ضمن القبائل الگياشة جعلها تحتفظ بذهنية التنقل حتى في ظل استقرار الأوضاع، معناه أنها مجموعة بشرية تحت التصرف، وتدبير شؤونها قائم على هذا الأساس، أمر كفيل بتعريضها للتأديب في حال رفض الانصياع، وهو وضع يخل حتما بفكرة التمدن، نستدل على ذلك بما وقع سنة ١٨٨٠ حين رفضت قبائل أيت الربع تمويل حملة سلطانية إلى السوس فأخذ السلطان الحسن الأول (ت ١٨٩٤) بثأره منها، حيث هاجمها جيشه وفرّت إلى حدود واد العبيد قبل أن تطلب منه الأمان فوافقها على شرط أداء غرامة مالية ثقيلة والانقياد للخدمة الشريفة، نقرأ في رسالة وجهها الحسن الأول إلى قواد قبائل «أيت الربع» ما يأتي: "خدامنا الأنجاد، قبيلة أيت الربع كافة، وبعد فقد أطلقتم لسان الفساد، وأرخيتم عنان الغي والعناد وأطلقتم الرسن وضربتم في بيداء المخالفة بعطن، فكيف رأيكم فيما صدر منكم، مع كونكم تدعون مخزنا، فما بالكم لم تحركوا لسوس، وقد كتبنا لكم بها وسط جيوشنا الموفورة... زيادة على عدم دفعكم ما حرم الله، وكنتم لا تطالبون به من قبل، حيث كان وصف الخدمة فيكم قائما... وأما الآن فقد استوجبتموه هو وغيره من الكلف.. وارتمى بكم الحال إلى أن اقتحمتم سفك الدماء وقطع الطرق اللذين هما منهى الغي والظلال"[١٨] غير أن الجزاء لم يرتب على القواد للأداء من ملكهم الخاص بل فرضوا على القبيلة أداء غرامة مالية كبيرة انتهت إلى بيت مال العاهل "وحاصلة قد تعلقت بكم حقوق، فإن أنتم أديتموها وتداركتم رتق خرقها فعليكم الأمان وإلا فسطوة الله وراءكم، وقد وظفنا عليكم تكفيرا لما ارتكبتموه، وتطهيرا لصحائفكم من رجس المخالفة، أربعين ألف ريال عشرة آلاف لكل ربع من أرباعكم، فإن أنتم أديتموها، فلا تعود عليكم إلا بالبركة والرزق المتزايد، وإلا عاد عليكم وبال فعلكم، وحاق بكم مكر سيئكم، ودارت دائرة السوء عليكم وساء صباح المنذرين، والسلام"[١٩].

لم تتوقف مسيرة گيش أيت الربع[٢٠] بعد وصول الفرنسيين إلى بلاد تادلا، بل عملت سلطات الاحتلال على إحياء أرض وقبيلة الگيش، حيث وظفت فرنسا هذه القبائل في فرض «التهدئة» وفي مواجهة القبائل الجبلية التي لم تخضع لها بسهولة، ولأجل التأسيس لاحتياط عقاري فقد فرضت هذه السلطات صفة گيش على ١١٠,٠٠٠ هكتار تمهيدًا لمنحها للمعمرين. هكذا يظهر أن التحولات التي طرأت على امتداد أحقاب طويلة لم تعمل على تفكيك البنى العتيقة، بل حافظت عليها فحالت دون حدوث التمدن المأمول.

٣/٢-الحركات المخزنية (رمزيات السلطة والاحتكار)

شكلت العلاقة بين القبيلة والمدينة والمخزن مثار اهتمام عدد من الدراسات[٢١]، ودون أن نفصل القول في هذا الباب سنحاول رأسًا إبراز كيفية تأثير الحركات المخزنية على تادلا عامة وعواقبها، ولكن ما يهمنا تحديدا هو استيضاح الكيفية التي ساهمت بها في تعثر الحركة المدينية والعمرانية خاصة على بني ملال بالمعنى الذي كانت عليه قبل أن تحدد إداريا في وحدة حضرية. أمكن لنا أن نحدد كل هذا فيما يأتي:

- كان الغرض من الحركة هو التأديب أو الجبي، كما كانت لها غايات رمزية لها مفعول لا ينكر، لكن طالما عادت الحركة على المجال التادلي عامة بعواقب وخيمة، فالنصوص تظهر أنها تخلف قتلى ومعطوبين بل تفرغ المجال بصفة نهائية وليس أبلغ من لفظة الأكل تعبيرًا عن هذه الوضعية والتي تتردد بكثرة في الوثائق التاريخية.
- كان هاجس السلطان وعموم الجهاز المخزني المرافق له مزدوجًا، من جهة تكون عنده رغبة جامحة في وأد القبيلة، ولا تقف حدود التفسير هنا عند الجوانب المادية والاقتصادية بل تتعداه إلى الآليات النفسية لممارسة السلطة والتسلط، ومن جهة أخرى فالسلطان يرتهن برهان مالي إذ الغرض أيضًا تزويد البيت المخزني بالأموال اللازمة وأداء متطلبات الجند "ولم تلتفت المحلة إلى حز ما بقي من رؤوسهم شغلا بالسعاية وحرصا على الجباية".
- كانت الحركات السلطانية محددًا أساسيًا لمنع الاستقرار السكاني، وهو وحده الكفيل بنشأة المدينة وتمدنها، تقول وثيقة مخزنية" حرقوا قصورهم ولم يتركوا لهم فيها سبدا ولا لبدا فليمكن إلا هدم قصورهم، وإعفاء آثار رسومهم حتى

صارت دكا بعد استخراج خباياهم وزرعهم وأسلحتهم وأمتعتهم وصارت للجيوش ملكا"، هنا للسلطة السياسية الحاكمة مبررات، فإن كان السلطان في مراسلاته يقدم قتل الخارجين عنه على قتل الكفار، فإنه أيضًا يتخذ من النص الشرعي مبررا لآليات التأديب، والتي منها عقوبة النفي من الأرض.

- حتى إذا لم تكن وجهة السلطان ومقصده هي بني ملال وأرباضها الواطئة، فإن القبائل والجند التي وطنها فيه كانت تستدعى للمشاركة في الحركة قريبًا أو بعيدًا، لأنها مخصوصة بتلك الوظيفة، فقصبة بني ملال كانت مقاما للجند، كما أن القبيلة كانت وحدة للخدمة، فكانت موطنا لقبيلة گياشة، وهذا الوضع كان له تأثير مباشر على نمط الإنتاج، وأن الدولة بالمعنى الإنتاجي لم تدرك هذا الواقع أصلا، ولم يستدرك إلا في الحقبة الاستعمارية، وهل هي إلا مزية تحسب له، رغم آثارها الجانبية على التمدن في المجال التادلي.
- لم تكن الحركة السلطانية تراعي لهذا المجال خصوصياته، فهو مجال للزرع والرعي، لكن هذه الأنشطة توسم دومًا بالكفاف ولا تحقق التراكم، بفعل العوامل الطبيعية القاسية غالبا، وكان المخزن المركزي والمحلي يتخذ من وقت التحصيل زمنا للتحرك، وهذا الاجراء يحول دون اكتمال الدورة الانتاجية، فالنصوص المتوفرة[٢٢] تبين أن السكان لا يزرعون إلا القليل ليس لضيق المجال أو لتطرف المناخ، ولكن لأنهم يعرفون بمقدم الحركة مدفوعة بدافع الانتقام والعداوة بحسب مضمون الوثائق المخزنية نفسها، وهذا يؤدي حتما إلى فرار السكان إلى الجبال وتحصنهم بها، وتراقبهم القبائل العسكرية المرابطة بالسهل وبتكليف، هذه دورة مفرغة ومفزعة في نفس الآن تنم عن مراسيم فارغة للحكم، ومع أنها طالت لقرون، فإن استمرارها أثبت من انقراضها.

كتب شاهد أجنبي يقول: "ورغم الحصيلة الفلاحية السيئة فإن السلطان تحرك بالمحلة في فصل الربيع (٣ ماي ١٨٧٩) عبر السراغنة وانتيفة لإخضاع قبائل أيت عتاب الموجودين على ضفتي وادي العبيد، وكذا جيرانهم بني موسى بمنطقة دار ولد زيدوح وقصبة بني ملال. وبعد إخضاع هذه القبائل اتجه الملك ووزراءه نحو مكناس...وفي ربيع السنة الموالية اتجه السلطان نحو مراكش، حيث ستحل محلته عند زمور ثم عند زعير التي اجتاحها، منحدرا نحو الشاوية، معرجا على تادلة التي خضعت قبائلها البربرية، كما استقبلت قبائل زيان أحد القواد مع قوات من أفواج المخزن، والتي ستكون نواة قوة موحا أحمو المشهور، وهكذا دخلت المحلة المنتصرة مراكش حيث ستقضي أربعة أشهر الشتاء"[٢٣].

إن بني ملال، وبالنظر إلى مسار نشوئها وارتقائها، وتوازيا مع ما عرضناه حول مسألة العصبية القبلية ونمط الانتاج والدفع نحو التنقل والترحل، بقيت مراوحة لمكانها في إطار بنية راكدة. أمكن القول إنها مرت من ثلاث مراحل، ويبدأ هذا المسار حتى قبل أن تسمى باسمها الحالي، أي حين كانت تنعت بداي وقصبة بلكوش ثم قصبة بني ملال إلى صارت تحمل اسم المدينة اليوم، هذه المراحل هي:

مرحلة المدينة المجهضة: وتسري على فترة الوصول الهلالي إلى المنطقة، إذ قبل هذا العهد تأسست مراكز حضرية شاع ذكرها في التآليف الاخبارية بشتى أنواعها على أنها مقصد التجار والصناع، زرعها كثير وفير وفيها عدد لا يستهان به من السكان، غير أن الدخول الهلالي أجهض مسيرة تلك المراكز-المدن وحال دون استمرار تمدنها. ألم يكن ذلك من مراجعات يعقوب المنصور بالله الموحدي (ت ٥٩٥هـ) إذ قال يوم حضرته الوفاة أنه ما ندم على شيء في خلافته إلا من ثلاث أولها "إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع أني أعلم أنهم أهل فساد".

مرحلة البداوة المرتجعة: حل الهلاليون بهذا المجال وأنزلتهم به السلطة الزمنية تأديبًا وتعميرًا، فقد كانت الحاجة ماسة إلى الانسان مثلما كان الضبط من رهاناتها، غير أن القبائل التي وصلت إلى المنطقة على مراحل كانت ظاعنة مخربة لا تعرف سبيلا إلى الاستقرار ولو توافرت لها ممكنات ذلك من أرض وماء، فعادت البداوة لتطغى على المجال وتأجل استئناف المسيرة المدينية لوقت طال أكثر من اللازم بفعل طبائع تلك القبائل ورفضها التام للتغيير ظاهرًا وخفيًا.

مرحلة المدينة الكسيحة: طال أمد البداوة في بني ملال، فلم يطرأ التحول المتوقع حتى في ظروف الانتعاش العابر، بل حتى مع قدوم الوافد الجديد صاحب رسالة التمدن، على العكس من ذلك عمل على إحياء البداوة والقبيلة وزكى القبلية حتى حين رفضها أصحابها فهو لذلك كان معتديا أثيما، فوجدت التربة الخصبة للانغراس والتجذر إلى اليوم، لكل ذلك تظهر مدينة بني ملال كسيحة في تجليات ومظاهر عدة.

ثالثًا: مخرجات الموضوع ودرس عسر التحول

يمكن القول، استنادا إلى المنجز السابق، أن بني ملال بدأت في التشكل كقبيلة تقدم نفسها مجتمع بدو ادعى نقاوة النسب، والعصبة هاهنا هي التي تحرك همم الرجال، ولما دشنت مسار المدينة صار أهلها يبالغون في تعداد الأجداد، وهنا بالضبط ورثت المدينة تركة القبيلة، فكرة تتبعناها عبر مستندات متاحة وملاحظات مشاهدة، واستنتجنا منها خلاصات هذه أهمها:

- ليست بني ملال في الواقع التاريخي إلا مركزًا حمل في كثير من الوثائق اسم "المدينة"، نقصد الوثائق في عموميتها الزمنية وحتى في أصلها ومرجعيتها[٢٤]، كذلك الأمر في المعنى الوظيفي اعتبارا للتزايد المهول لعدد السكان والتوسع المجالي[٢٥]. إن هذا الاستنتاج نابع من تتبع تاريخي لأصل وتطور الظاهرة الحضرية بمجال الدراسة، مجال نشأت فيه مراكز حضرية عبر قرون، لكنها تعثرت جراء عوامل خارجية وداخلية ولم يكتمل نموها لتحمل صفة المدينة. إن بني ملال لم تستطع فك الارتباط مع نوابتها غلب عليها طابع البداوة وخشونة الطبع وانحطاط السلوك وردة الفكر وفظاظة الخطاب، وكلها سمات المجتمع البدوي الزراعي القبلي، فمن الخارج تشاهد بني ملال مشوهة ومعطوبة ومن الداخل لا تقدم للمرء ما به يفتتن أو يعجب، حتى أمكن القول أن "مدينة" بني ملال كيان غريب غرس في جسم مجتمع بدوي قبلي قروي، فالمعاش الذي انتحله أهل المدينة لم يكن إلا ضروريا ولم يصل إلى مستوى الكمالي، ولم يركن أهلها إلى السكون والدعة حيث غلب الصراع، ولم تظهر الصنائع والتجارة وسائر المهن التي تختص بها الأمصار.
- بني ملال اسم لقبيلة، في الحقيقة وحدة إدارية مصطنعة مهما ادعى المنتسبون إليها، ومعهم بعض المؤلفين[٢٦]، أن نسبها صحيح ويرفعونه إلى جد مشترك، لا يودون مع ذلك أن تذكر صفاته المقرونة بالهدم والخراب والغزو وأخذ ما بأيدي الغير بالسيف، لكن الثابت أن الاندفاعات القبلية لبني هلال وصلت إلى المنطقة، ومعها وفد عنصر طارئ على مجال سار حثيثا نحو الاستقرار واتخاذ المدينة سكنا ومستقرا له، عنصر لا يقبل التحضر بيسر. ويحن إلى الظعن وتذكر "أيام العرب". ليس هذا الحكم نابع من أن الأعراب فعلوا ما يستحقون أن يصب متقول جام غضبه عليهم، مثلما فعل بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون مثلا، ولكن تتبع المصادر ومختلف الوثائق يوحي بكون قدوم العنصر الأعرابي الهلالي حال دون بروز مدينة وساكنة مدينية تتجاوب طبائعها مع العقلانية التي تفرضها.
- تفيد الاشارات المصدرية والوثائقية أن العامل السياسي محدد حاسم في نشأة وتطور مدينة بني ملال، فهي مثل غيرها من المدن المغربية، ومثل كثير من القضايا التاريخية المصيرية، خضعت لمراقبة الدولة السلطانية. فلم تكن مدينة بني ملال إلا أداة للسلطة المخزنية جعلت لهدف الاخضاع والتحكم، وهذا عنصر آخر مضاف إلى عناصر التعثر، فقد أولى المخزن العلوي خاصة اهتماما بالغا لهذا المجال لكنه لم يستثمر في الاتجاه الايجابي الذي كان يمكن أن ينتج مدينة يقدم بها هذا المجال نفسه. فهي لم تكن في الأصل إلا حصنا أنزل به السلطان جيشه وكلفه بمراقبة قبائل المنطقة، ولما قطنها الملاليون وسورت حافظت على نفس المهمة ولو سيكولوجيا، إذ استمر المخزن يذكر بالتنافر ولا يدعو للتعاون والتقارب[٢٧]، كل هذا مدفوع باختلافات راهن عليها لبث الفوضى وإظهار الحاجة المستمرة إليه محليًا ومركزيًا.
- إن هذه الاعتبارات السياسية عضدها إقدام المخزن المحلي والمركزي على ضبط الساكنة المدينية والمجاورة في الأرباض بالحَرْكات والمْحَلات، فهو سلوك وإن كان مبررا بظروف الوقت فهو من حيث مآلاته سافر، لأن بأسها أكبر من نفعها، ولعل عبارة "أكل الزرع أو القبيلة" أو عبارة "خنقهم وأتلف نفوسهم" أكبر دليل على ذلك. كل حركة يتبعها أذى، تهجير للناس، تعطيل للإنتاج، ترهيب للنفوس، وأكثر من كل هذا دورية الصراع ولزوميته، في جو مثل هذا لم يكن من الممكن أن تبرز مدينة مستقرة آمنة منكبة على التعمير والعمران.
- إن وفود بني هلال إلى المنطقة مصحوبين بنمط ترحالي قبلي، أسهم في الحيلولة دون تطور الحصون والقلاع التي كانت قائمة قبل هذا التاريخ، أمر لم يكن استثناء حتى يستبعد كعنصر تحليل أو تفسير، فالهجرات الهلالية والمعقلية التي حلت بكثير من مناطق المغرب في فترات متفاوتة أدت إلى نفس النتائج، فالباحثون تحدثوا عن ثورة مدينية قبل هذه الفترة صاحبتها فورة ديمغرافية واقتصادية حققت فائضا في كثير من المنتجات الفلاحية، بل إن المدينة وصلت إلى مستوى فوق القبيلة، وكان يسكنها أخلاط من البربر والعرب، ومع التطورات الطارئة حل الخراب واضمحل العمران وعادت القبيلة لتطفو على الساحة من جديد. حالة

بني ملال مماثلة مع مجال الشاوية شمالا وسجلماسة شرقًا وولاّتة جنوبًا.

- بنية مدينة بني ملال متأزمة، فعلى المستوى الاجتماعي لم تكن إلا امتدادا للقبيلة، داخلها نجد التقسيمات القبلية المعروفة تتعارض لتضمن لنفسها التوازن. ففي المستويات الدنيا تعقد أواصر التضامن باسم الأسرة ثم العشيرة وربما وجدت مستويات أخرى من التنظيم غير هذه التي ذكرت، وفي الأعلى تنصهر كل هذه المستويات حين يتهددها خطر خارجي، هذا الخطر لم يكن هو التهديد المخزني لأنها كانت من متوليه، ولكن تمثل في الجنس الأمازيغي الذي رأى أن المدينة منعمة ومترفة حق له أن يطمح في موفورها. على هذا الأساس من الصراع الموروث لم تكن مدينة بني ملال إلا وحدة تنظيم وليست وحدة إنتاج.
- كانت بني ملال وما إليها ضحية الضغط الخارجي، من قبائل السهل والجبل ومن سياسة سلطانية عادت كارثية على بنية الدولة بأكملها، حيث أسس المخزن لوجوده في هذه المنطقة على أساس صد قبائل الجبل ومعاقبة قبائل السهل كلما امتنعت عن أداء الخدمة الشريفة، مهمة قائمة على التحكم في التنقل العمودي بين "أدرار" و "أزغار" حيث الرعي لم يكن مكملا للزراعة، بل هو الأساس وعدد رؤوس الماشية هو المقدر للثروة، فلا قبائل الجبال وجدت له بديلا ولا قبائل السهل عرفت كيف تستغل الأرض لتحقيق التغيير، فكان الاستقرار وغياب الصراع أو التقليل منه رهينين بهذا التحول، وإذ لم يتحقق فإنه استمر مانعا من موانع التمدين والتمدن.
- ذهنيات مجتمع بني ملال هي الأخرى مأزومة، أصل ذلك عائد إلى أعطاب نفسية، أفرزت شروط إنتاج العنف واستمراره، فقد سادت اللصوصية والانتقام والاقتتال والحركة والتنقل، ليس ثمة ما يؤكد أنه كان عنفا مؤقتا أو على الأقل متحكما فيه، بل هو عنف بنيوي لا ينتهي إلا ليبدأ، حال كل هذا دون نمو المدينة وتمدنها، فقد كان الهاجس ابتداء وانتهاء هو البقاء والحفاظ على التوازنات، ولأجل ذلك تعصب الناس وتنافسوا ودخلوا في اتفاقيات وتحالفات لتقاسم المجال والمنافع.
- من تجليات أزمة الذهنيات أيضًا أن "مدينة" بني ملال، لم يكف فيها الناس عن الالتفاف حول المدركين من البشر، شيوخ وأولياء وعارفين، فتعلق الناس بعدد من الممارسات كالاعتقاد في وجود بركة عند شيخ أو أرواح وأعمال عجيبة، استوى فهم الناس في ذلك ولا فرق بين من ادعى أنه عالم ومن هو من عوام الناس[٢٨]. فبني ملال تعرضت لهجوم القبائل المجاورة وكان ذلك مصدر خوف، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الرجال الصلحاء، كانوا مقصودين يتقي الناس عقابهم وسخطهم ويحتاجون إلى بركتهم وكراماتهم، لم يقصد هؤلاء الأشخاص فقط، الذين حظوا بالتبجيل والتوقير، بل قصدوا الأمكنة أيضًا في مناسبات متفاوتة، لذلك عجت المدينة بأضرحة ومراقد الصالحين التي وفرت شروطا مناسبة للنشاط الروحي. هؤلاء كل ما فعلوه، إن كانوا أحياء، أمروا الناس بالصبر والاحتساب ولم يدعوا لهم المجال لاتخاذ مبادرات عقلانية بديلة، مع أن كثيرا منهم كانوا من المترفين الأثرياء.
- حلت فرنسا ببني ملال في حدود عام ١٩١٦، فوجدتها صورة مطابقة لما نقلته تآليف المبعوثين، مدينة محصورة بأسوار هي كل ما يميزها ويجعلها كذلك، ولأن فرنسا تبنت نظامًا يرتكز على سياسة أهلية فيها تفرقة ومحافظة أيضًا، فإنها لم تضف إلا ما كان ضروريًا بالنسبة لها من أجهزة إدارية وتسخير تشييد الطرق من أجل أغراض أمنية وتدعيما للنشاط الاقتصادي، بالإضافة إلى بعض الخدمات الاجتماعية التي كانت موجهة. لكن أهم ما يتعين الإشارة إليه هاهنا هو أن فرنسا حافظت على البنيات العتيقة للمدينة من مراتب سياسية واجتماعية وثقافية، لذلك لم تكن المدينة قادرة على استيعاب النشاط الاقتصادي الذي بدأ يبرز خارج الأسوار وعدته فرنسا من إنجازاتها، رافق كل هذا إحياء مقصود لتقاليد عتيقة تذكر بالقبيلة داخل المدينة.
- بعد الاستقلال استمرت المدينة تبنى على أنقاض ما تخلف من العهد البائد، وفي هذه الفترة لم تكن المدينة إلا تعبيرا عن تيه عم سياسة الدولة بأكملها وتقدم تفسيرا لها، تسلم مقاليد التدبير بها الأعيان، فلم يكن عندهم ما يسوسون به إلا مما عندهم من قرارات تنم عن عقلية قبلية، سادت الفوضى في التعمير أفقيا وعموديا، وتفاقمت معضلات التدبير، وغاب التخطيط وما وجد منه نفذ بشكل مشوه، حدث كل هذا في غمرة نزوح كثيف من الجوار والآفاق البعيدة لم يستغل إلا في الرأسمال الانتخابي وهو المحدد الأساس للتوجهات المستقبلية للمدينة، وعلى المستوى الثقافي والذهني تكرست الأنماط القبلية في شتى مناحي الحياة، في السكن وتجمعاته، في الخطاب ومدلولاته، في الحياة ويومياتها. أمكن القول تبعًا لكل هذا أن التحول لم يحصل سوى من القبيلة إلى القبلية.

خَاتِمَةٌ

نعتقد أن دعوات إعادة إيجاد حياة للقبيلة والعشيرة داخل المدينة وخارجها، في بني ملال وغيرها من الأقطار، دعوات لا مبرر لها، في صورة ذلك ينبغي إعدام تلك التنظيمات، فهي أكبر كوابح الدولة العقلانية، وهذا الإطار وحده هو الذي تتحقق داخله المواطنة، مهما كانت كثافة الأمشاج والأعراق، القبيلة تلجم التفكير في الحاضر والمستقبل، القبيلة تنزع الانسان من حاضره وتقدف به في ماض لا يعلم له بداية، تبقي التضامن الآلي قائمًا الذي يغلب فيه التشابه على الاختلاف والتكامل.

اعتقد بعض الباحثين الذين عنوا بالبحث في القبيلة أن اليوم الذي تندثر فيه القبيلة بالمرة كما اندثرت في الأقطار المتحضرة والشعوب المتطورة قريب، وتبقى محلها العمارة أو الجماعة التي يرتبط أفرادها برابطة المصلحة المشتركة والمنفعة المتداخلة لا برابطة القرابة النسبية، غير أن شيئًا من ذلك لم يحصل بعد لدواعي متباينة بعضها جلي وغالبها خفي، منها أن الدولة ما تزال في مستواها السلطاني المشخصن، مستوى يميز بين العوام والخواص، وهي ألفاظ تخلفت عن المصنفات الفقهية وتآليف السياسة الشرعية والمتون الصوفية، وكلها أثرت في نفسانية الفرد الذي لا يجد أمامه إلا القبيلة يستذكرها لتحميه نفسانيا. ثم إنه لا ينبغي على الباحث في التاريخ أن يفهم من الحوليات الاخبارية أن جهاز المخزن يثأر لنفسه من القبيلة، فيبطش بها إلى أبعد مدى، الحاصل هو العكس، على أساس القبيلة كان يرسم خططه، ولم تكن له نية ورغبة في القضاء عليها، وضع تاريخي يكيفه اليوم مع مفاهيم السياق السياسي والاجتماعي والثقافي المتداولة في الخطاب الرسمي.

الاحالات المرجعية:

(١) يتعين أن نشير في هذا المقام إلى أن رواد مدرسة الحوليات تفوقوا كثيرًا في إنتاج دراسات تركيبية حول قضايا محددة وضمن مجالات محدودة، استنادا إلى رؤية منهجية، لا نرى من داع للكلام عنها ههنا، وبقدر ما كانت تلك القضايا مبحثية (شمولية)، بقدر ما كانت مهتمة أكثر بالبحث في العقليات والذهنيات، قصد الكشف عن المتروك من المصادر والمغيب من الفئات الاجتماعية. من هذه الدراسات نورد على سبيل المثال ما يأتي منها:

Pierre Toubert, les structures du Latium médiéval : le Latium méridional de la Sabrine du IX siècle à la fin du XII siècle, bibliothèques des écoles Françaises, Rome, 1973. Emmanuel Le Roy Ladurie, Montaillou : village occitan de 1294 à 1324, Gallimard, 1973. Pierre Goubert, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730, contribution à l'Histoire sociale de la France du XVII siècle, Flammarionn Paris, 1968.

(٢) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. ٦، ١٩٩٤.

(٣) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ، اتجاهات- مدارس- مناهج**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠١٣، ص. ٢٢٠ وما بعدها.

(3) Braudel (F), La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598), Armand collin, 9(ème) édition, 1999.

انظر كذلك الملاحظات التي سجلها محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برليت السوربون- استراسبورغ**، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، ط.١، ٢٠١٨، ص. ٨٩- ١٠١.

(٤) حول القبيلة أمكن الرجوع إلى عديد دراسات منها: المختار الهراس، **القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتوثيق البحث العلمي، الرباط، ١٩٨٨. الهادي الهروي، **القبيلة والإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤- ١٩٣٤**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٥. مجموعة من الباحثين، **الأنتربولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٧. محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات رقم ٤١، بيروت، ٢٠٠٢.

Larou i (A), les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, maspero, Paris, 1977.

(٥) محمد بوسلام، **تاريخ قبيلة بني ملال ١٨٥٤- ١٩١٦، جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تادلا**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩١.

(٦) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب، ١٨٨٠- ١٩١٥**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص.٧٥.

(٧) محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٨٤،ص.٢٣١. الشريف الادريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة نابولي، ج٣، ص. ١٤٤. أبي بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص. ٤٩-٥٠. أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، الجزء ٢، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، قرطاج، ١٩٩٢، ص. ٨٤٤- ٨٤٥.

(٨) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرحاني للنشر والتوزيع، دون تاريخ، ص.١٨٩-١٩٠. عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء ٦، بيروت، ٢٠٠٠، ص.٣٧.

(٩) الحسن بن محمد الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص. ١٧٦-١٨٣.

(١٠) أبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب**، مخ. خ ع، رقم ٦٥٨ د، ص.٣٨٠.

(١١) شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب، ١٨٨٣_١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، ١٩٩٩، ص.٨٣.

(١٢) من ذلك مثلا صدور ظهير شريف مؤرخ ب ٢٧ أبريل ١٩١٩، والذي حدد أدوار الجماعات الادارية معلنا موت "اجماعة"، من دون أن يقبرها إلى الأبد، فبقيت منذ ذاك في حالة احتضار تحيى في لبوس جديد من طرف تنظيمات اجتماعية متباينة.

(١٣) من اليسير أن نتبين أن هذه التعابير خلدونية، راجع المقدمة، ص.١٥١. ١٧٢. ١٨٦. ١٨٧. ١٨٩

(١٤) حول هذه الأنماط أمكن العودة إلى الهادي الهروي، **القبيلة الاقطاع والمخزن**، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤- ١٩٣٤، افريقيا الشرق، ٢٠٠٥، ص. ١٣٤.

(١٥) مخ خ ح، رقم ٦/١، رسالة من القايد بوعبيد بن محمد إلى السلطان بتاريخ ٠٣ مارس ١٨٣٨.

(١٦) استعملنا اللفظة هنا وفي سياقات مختلفة من هذه الدراسة، بالمعنى الذي حملته في المؤلفات والمراسلات، وفيها تحيل إلى مجموعة بشرية وليس إلى نعت قدحي، كذا الأمر بالنسبة للفظة "الأعراب".

(17) Le Coz (J), *Les tribus guichs au Maroc*, revue de géographie du Maroc, faculté des lettres, Rabat, p. 19.

(١٨) كناش الخزانة الحسنية، رقم ٣٥٣، **رسالة من السلطان الحسن الأول إلى قواد أيت الربع**، بتاريخ ٠٧ يونيو ١٨٨٣، ص. ٤٨.

(١٩) نفسه، ص.٦١.

(٢٠) يشير صاحب مؤلف **"الابتسام في دولة ابن هشام"** والذي كان كاتبا للسلطان عبد الرحمان بن هشام (١٨٢٢- ١٨٥٩) إلى أن العبيد يشكلون أغلبية الگيش ص. ٤٢١. ولم يكن گيش أيت الربع طبعا من العبيد بل من قبائل هلالية وحتى أمازيغية، ومعلوم أن الجيش المغربي على الأقل في القرن التاسع عشر كان يتشكل من خمس مجموعات ليس بينها مجموعة "أيت الربع"، وهذه المجموعات هي: البواخر- شراكة- أولاد جامع- شراردة- الأوداية. (ابن زيدان، **العز والصولة**، الجزء ٢، م. س، ص. ١٨٩- ٢١٦). تدل إذن تسمية گيش أيت الربع على وحدة لاستغلال الأرض أكثر مما تدل على تقديم الخدمة العسكرية والتي غالبًا ما كانت تقتصر على المستوى المحلي.

(٢١) علاقة القبيلة والمدينة بالمخزن، قضية تصدت لها أبحاث متنوعة محلية وأجنبية، عامة يمكن التمييز هنا بين مقاربتين، الأولى: أمكن تسميتها بالمقاربة الدفاعية، حيث تفسر الخلل بالضغوط الأجنبية، والتسرب الأوربي، كتب الباحث الصديقي في معرض حديثه عن الرحامنة يقول "تصادف تلك الأزمة (أزمة النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، التي كانت تعتري كل مجالات الحياة المغربية، على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدبلوماسية وحتى الشرعية، بسبب ما كانت تعانيه البلاد من ضغوط أجنبية وما كان يترتب عليها من نتائج وخيمة، نخرت كيان الأمة المغربية، وكسرت توازن مجتمعها، ويهمنا أن نتعرف عبر هذه الدراسة المحددة في الزمان والمكان، على ما آلت إليه علاقة الرحامنة بالمخزن في النصف الثاني من القرن الماضي، على ضوء المستجدات التي طرأت على البلاد، وإلى أي حد نالت الأزمة المشار إليها من قبيلة كانت تستمد هيمنتها في الحوز، من توازنات مجتمع زراعي قبل أن تفكك الضغوط الأجنبية بنياته.. أنظر عبد الرزاق الصديقي، **الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن**، (١٨٥٠- ١٩٠٠)، بابل، الرباط، ١٩٩٧، ص.١٨-١٩.الثانية: تدعو إلى مراجعة مثل هذه المسلمات، وترى أنها تحجب فهم بعض الظواهر والبنيات التي ورثها المجتمع المغربي على امتداد قرون عديدة. أنظر عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ٢١. هذا البحث حول بني ملال يرى أن المقاربة الثانية هي التي تقدم ممكنات أوسع للتفسير والفهم، وسيعتمد عليها لاستجلاء عوامل وكوابح تعثر التحول من القبيلة إلى المدينة، وكيف أن المدينة ورثت كثيرًا من مظاهر وتركة القبيلة.

(٢٢) يمكن العودة إلى: عبد الله الكنسوسي، **الجيش العرمرم**، م. س، ص.٢٢٨. أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار النشر والمعرفة، الرباط، ١٩٩١، ص. ٧٥-٧٦. عبد الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، الجزء ٢، م. س، ص. ١٤٩-١٥٠. رسالة مخزنية من أحمد بن محمد بن القايد إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام مؤرخة ب ١٢٦٣ هـ، محفوظة بمديرية الوثائق

الملكية، الرباط، غير مرقمة. شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م. ص.٨٦-٨٧.

(٢٣) لويس أرنو، **زمن المحلات السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين ١٨٦٠ و١٩١٢**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء وبيروت، ٢٠٠٢، ص.٥١-٥٢.

(24) Gautier (E.F), *Médinat-ou-Daï*, in HESPERIS Archives berbères et bulletin de l'institut des Hautes études Marocaines, Tome VI, année 1926.

(25) Laraichi Fatima et Gouvreur, Béni mellal : Une ville Marocaine moyenne, D.E.S, Strasbourg, 1973.

(٢٦) محمد بوسلام، تاريخ قبيلة بني ملال، مرجع سابق.

(٢٧) يمكن أن نستنتج ذلك بيسر من خلال بعض المصادر، راجع مثلا ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، الجزء ٢، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٨

(٢٨) بهذا الشأن راجع: ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٤، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠. الصومعي أحمد بن أبي القاسم، **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٦. الولالي أحمد بن محمد بن يعقوب، **مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**، دراسة وتحقيق عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩.